الادب الفارسي

وخدمة الوثنيين له في الهند

للسيد ابو النصر احمد الحسيني الهندي

— ٣ —

حين بدأ يأفل في الهند كوكب المغول الساطع ، وتميل اركان مجدهم الراسخ ، تزلزلت وطائد دولهم الراسية ، فأصبحت كأنها اعجاز نخل خاوية ، قد تشتت لظامها ، وتشعب التئامها ، فتشذب بولاة الامر بتشطة . وصار حكام الاقاليم طرائق قددا . وما كان هؤلاء قبلاً الا اعضاء حكومة كبيرة منظمة ازدهرت في رعايتها العلوم والفنون ، وترعرعت في حمايتها العلماء والادباء والشعراء . فلذلك فلم يكد ذلك الطود يهوى ، وانقصر العظيم يخوى حتى انتقلت تلك الرعاية والحماية الى مراكز هؤلاء الحكام فكان اهم تلك المراكز اقليم « اَوَدْه » واقليم « بِهَار »

ففي « اَوَدْه » اسس حكامه بلاطاً فاخراً على نهج البلاط الملكي في دهلي ، متوسلين بمسمه ، ومتخلقين بشيمه ، ومقتدين بمحاسنه ، ومتحلين بأوصافه ، فأمّه اهل العلم والفن والادب والشعر من دهلي ذرافات ووحداناً . فأصبح البلاط بهم طلعة لا تمل وغرة لا تكره . وكان بينهم علماء الفارسية وادباؤها وشعراؤها واشهرهم من الهنود الوثنيين : (كندن لال) عشقي ، و (راى بنات سنج) بيدار ، و (كنورجسونت سنج) برواه ، و (راي سراب سنج) ديوانه ، و (ميرزا محمد حسين) قتيل وهو من اصل وثني من شرفاء الطبقة القشطرية [1] . لم يكن الاخيران مجددين لاسلوب خاص بالادب الفارسي فحسب بل مصدري الالهام للكثيرين من الادباء والشعراء « فكنورجسونت سنج » برواه تلقى العلوم الفارسية عن (راي سراب سنج) ديوانه ، واصبح (ميرزا محمد حسين) قتيل استاذ الفارسية لعدد وفير من المسلمين في بلدة لكهنو ، حاضرة اقليم اَوَدْه . وتصانيفه : « نهر الفصاحة »

(١) ينقسم الوثنيون على حسب دينهم الى اربع طبقات : طبقة البراهمة وهم السادة واصحاب الامر فيهم ، وطبقة القشطرية وهم الذين موكل اليهم الدفاع عن الوطن فهم جيش الامة وطبقة الشودرية وهم اهل التجارة والزراعة ، وطبقة المنبوذين وهم اصحاب المهن الحقيرة

و « شجرة الاماني » و « جهار شربت » في الادب الفارسي وفنونه شهيرة وفي غنى عن البيان

نعم انتقد بعضهم من المتأخرين اسلوب (ميرزا محمد حسين) قتيل . فالشاعر الفيلسوف الكبير (ميرزا اسد الله خان) غالب [1] مثلاً قال في بيت ترجمته فيما يلي

ان الذي اجتاز هذه المواقف
لا يحتاج الى ان يعرف قتيلاً ولا واقفاً [2]

ولكن علامة الكبير نواب صديق حسن خان يعتبره في كتابه القيم «شمع انجمن» من ذوي البسطة في العلم ومن الادباء الافذاذ في عصره . فالرقمات (اي مجموعة مكاتيبه) تدل على انه لم يكن صاحب اسلوب خاص بالفارسية فحسب بل كان قادراً على كتابة العربية والتركية كذلك وبنفس السهولة

لم يكن شعر (راي سنات سنج) بيدار وتضلعه من فنون الادب الفارسي افل استيفاءً لنظر اهل العلم والادب ، فقد نوه به العالم الاديب ابو طالب الذي ولد في بلدة ذرسي شهر ايران وتوطن الهند في اوائل القرن الثامن عشر ، في كتابه « حديقة الافكار » المحفوظة نسخته الخطية النادرة في مكتبة المستشرق الانكليزي هارلي Harley . وهو كتاب جمع فيه المصنف أحوال الشعراء الذين لم تكن آثارهم سهلة المنال وعلى حمل ذراع طلاب الفارسية . فوقف صفحات منه على تقدير كفاءة الشاعر (راي سنات سنج) بيدار ، وذكر فيها أنه كان من شعراء بلاط أورنك ، أدرك عهدين من حكامه — عهد شجاع الدولة وعهد آصف الدولة . وله ديوان كبير احتوى على خمسة آلاف بيت . وكان ذا حظ أوفى من فنون الشعر وبخاصة في القصائد ، كما كان له القدح المعلى في استخراج التاريخ من حروف الأبيات . فقد كتب قصيدة طويلة في التهنئة بزواج ممدوحه آصف الدولة ، استخرج فيها تاريخ الزواج اي سنة ١١٨٤ هجرية من كل شطر واليك بعض الابيات منها قال :

---

(١) كان شاعراً مطبوعاً باللغة الفارسية والاوردية ومنزلته بالاوردية عقابة منزلة شكسبير بالانكليزية أو جويته بالالمانية

(٢) «قتيل» و «واقف» اسمان لشاعرين

تعالى الله عجب أيام عيش جاودان آمد
زبهر راحت كيتي نويد از آسمان آمد
دوسرو جويبار حسن يا مهرومه دوران
و يا سعدين كه ازبهر فرح باهم قران آمد

لم تكن انواع الشعر الفارسي المعروفة مثل الغزل والنسيب والقصيدة مظهراً لكفاءة هؤلاء الشعراء الهنود الوثنيين فحسب ، بل كانت انواعه الاخرى ايضاً مثل اللحم والرباعي والمثنوي التي لا توجد في الشعر العربي ، مجلى براعتهم . نعم كان الذين فاز قدحهم في مضمار هذه الاصناف من الشعر الفارسي حيث لا يرام مساماتهم ولا تُتعاطى بحاراتهم حافظ، وسعدي، ونظامي ، وخيّام، وفردوسي، وروميّ وخسرو ، ولكن الجهد الذي بذلهُ فيها هؤلاء الهنود والشأو الذي ادركوه في حلبة اتقانها وجدتها مما يستوقف النظر . فقد كتب الشاعر « بمل » الذي درس على الشاعر (راي سراب سنج) ديوانه ، كتابه « سلسله نهابت » من صنف المثنوي كما كتب (بهكوان داس) وهو تلميذ الشاعر « فاخر سين » كتابه « لمية الصين » ونظم الشاعر (بندرابن داس) خوشكو تحت قيادة استاذه الشاعر الكبير « بيدل » احوال بلدة « مثرا » وهي من البلاد المقدسة عندهم . وكذلك نظم رفيقه في التلمذ (جوربخش) حضوري قصة هندية « كامروب وكامتا » . واضطلع بنقل ملحمتين هنديتين كبيرتين « مها بهارتا » و « رامايانا » الى الفارسية نظماً الاديب الشاعر (لاله منشاق راي) ، فقام به بمشاركة رفقائه الآخرين مع وعورة مطلبه ، وصعوبة مرامه أحسن قيام . ونظم الشاعر (حكم شند) ندرت الثهانيسوري الأساطير الدائرة حول شخصية الاله « كرشنا »

قبل ان تكلم عن الكتّاب بالفارسية يجدر بنا ان نذكر بين هؤلاء الشعراء اسم صديقنا المرحوم الشاعر الهندي الفيلسوف الكبير الدكتور محمد اقبال فقد دالله برحمته ، اذ كان علاوة على ابداعه في لغته الأوردية شاعراً مفلقاً بالفارسية أيضاً، له فيها سبعة دواوين بين صغير وكبير . والمرحوم وإن كان مؤمناً قانتاً ومسلماً مخلصاً، ومن عشاق النبي العربي عليه الصلاة والسلام، والحضارة العربية الاسلامية،

ومن كبار مفكريها ومدافعين عنها ، كان هندي الأصل ، أسلم أحد أجداده قبل مائتين وثلاثين سنة ولا يزال أفراد نسبه موجودين في الهند على دينهم إلى اليوم

ولا اصل بتاتاً لما قالهُ كاتب مصري في مجلة اسبوعية انهُ من العرب وانهُ قال له ذلك في مصر . ومستبعد جداً بل مستحيل ان يقول اقبال ذلك وهو قد صرَّح في دواوينه عن اصله الهندي. قال في بيت ترجمته ما يلي :

أن السيد والتركي ربطا قلبها ودينها بالسياسة

فابن يوجد عارف الاسرار غير الذي من سلالة برهمن[1]

وقال ايضاً في بيت آخر ترجمته ما يلي :

انظر اليَّ ذلك لا تجد في الهند مثلي

من سلالة برهمن ولكنهُ يعرف رموز روم وتبريز[2]

ثم من غرائب ما وقع في هذه المجلة نسقل كل شيء فيها عن مقالاتنا في المقتطف بغير الاشارة اليه ، وكنا ترجمنا النصوص المستشهد بها عن لغتي الاردية والفارسية وسكن الكاتب مع عدم علمه بهما حرَّفها مع ان النقل امانة ، وترجم بعض افكار الدكتور عن مجموعة محاضراته بالانجليزية وقال انها هي المحاضرة التي القاها الدكتور في جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة ، وليس فيها من المحاضرة شيء فان موضوع المحاضرة كان « الاسلام كتحول في التاريخ » ولا يزال صديقنا الفاضل الدكتور عبد الوهاب عزام الذي افتتح الحفلة بكلمة وصديقنا الاستاذ محمد احمد الغمراوي الذي كان يقيد المحاضرة وغيرهما كثيرون ممن حضروا المحاضرة وسمعوها يشهدون على ذلك.

ولا حاجة بنا الى ان نتكلم هنا عن وصف شعر اقبال بعد كل ما نشرناه عنهُ

اما النثر الفارسي فلم تكن براعتهم فيه اقل شأناً من النظم فقد ذكرنا آنفاً غير واحد من كتبهم فيه التي شيعت بالحمد وذكرت بالجميل في اندية العلم والادب . وتود الآن بطاقة اخرى منها وقد كانت بعيدة المدى اثراً حيث طاب نشرها في المحافل وحسن ذكرها في المجالس جيلاً بعد جيل . قلنا « دقائق الانشاء » للاديب (رنجور راي) ، و« جلشن بهار ايران » للاديب الشاعر (بندرابن داس) خوشكو ،

(١) يشير الشاعر الى نفسه (٢) اشارة الى رموز تصوف مولانا جلال الدين الرومي الصوفي المسلم الشهير والى رموز شعر شعراء تبريز مثل شمس الدين التبريزي

و«الانشاء» للاديب (ماد هورام) الذي كان بديوان الامير «جهانداد شاه»[1] محرره الخاص للفارسية. وقد اعتبر كتابه هذا مثالاً للانشاء الفارسي عند الادباء والفضلاء فأصبح كتاب العلم والتعلم في المكاتب والمدارس في شمال الهند زماناً

على ان اجمال في النظم والنثر يرجع الى جودة التعبير وحسن البيان والابداع فيهما ولا يمكن ان يتوخى لها وجوه النجح اذا لم يكن الشاعر والاديب راسخي القدم في اللغة، غزيري المادة وواسعي الاطلاع فيها. فلم يكن هؤلاء الجنود ممن لا يقوام لهم بها ولا من الراضين بالحرمان عنها، فقد انصرفوا اليها وكاثب الطلب وسلكوا نحوها سبيل النجاح، فصنفوا فيها غير واحد من كتب المراجعة الهامة للفيدة التي لا تزال تشهد لهم بفضل السبق وسعة الذرع الى اليوم. ففي بلدة سيالكوت مثلاً صنف اديب منهم «مصطلحات الشعراء» الذي ما برح مصدر العلم للادباء والشعراء. صرف صاحبه في اخراجه خمس عشرة سنة من حياته وجمع فيه الكلمات التي استعملها شعراء الفارسية واستعاراتهم واصطلاحاتهم مع الشواهد الى زمنه فأصبح كتاباً فريداً في بابه جم الفوائد، قريب المنال، داني القطوف

اما الكتاب الذي كان ارسخ اصلاً، وأبسق فرعاً، وأحلى جنىً، وأعذب وروداً، وأكرم تاجاً فهو القاموس الكبير «بهار عجم» للعالم اللغوي الاديب الثبت (لاله اودي بهان) الشهير باسم (تيك شندبهان). «بهار عجم» كتاب جليل جامع في اللغة استوعب فيه صاحبه اصول الكلمات وأحاط بفروعها، وبيّن مترادفاتها وذكر اضدادها وقدم شواهدها من كبار الأئمة وفطاحل الشعراء، حيث لا يوجد مثيله حتى بين مصنفات اهل ايران انفسهم. فم سبقه بعض الكتب ولكن ينقصها هذا الاستقصاء والاستيعاب. وعليه فما لا شك فيه ان (تيك شندبهار) قام بتأليفه هذا من خدمة الفارسية بمثل ما قام ابن منظور بكتابه لسان العرب من خدمة العربية، او الدكتور جونسون بقاموسه من خدمة الانكليزية. وهنا يستوقف النظر ويظهر مكان هذا العالم من الفضل، ويبين موضعه من الحذق ويبرز منزلته من الذكاء المتوقد انهُ اهتدى في ذلك الزمن — سنة ١٧٧٥ ميلادية — الى طرق الدراسة الحديثة لعلم اللغة المقارن Comparative Philology فقد صنف كتابين جليلين في هذا الموضوع وهما «جواهر الحروف» و«نوادر المصادر» حقق فيهما الكلمات

(١) هو ابن الملك نور الدين جهانكير ولد في سنة ١٠١٤ وتوفي سنة ١٠٥٥ هجرية

الفارسية بالمقارنة والموازنة مع كلمات اللهجات الاخرى الى اصولها الآرية الهندية

من الأمور العربة المسلم بها ان التاريخ لا يلائم طبع الفكر الهندي وقد أشار اليه العلامة البيروني أيضاً . فأنت تجد كتباً قيمة محفوظة عندهم من الزمن القديم الى الآن ولكن لا يمكنك ان تبلغ كنه تاريخها ولو بكلمة ، ولا أن تحيط بنبذ صحابها ولو بلمحة . فهناك عندهم علوم وفنون وحكمة عالية وفلسفة دقيقة ومذاهبها المختلفة ومدارسها المتنوعة ولكن تاريخ ظهورها وأحوال أصحابها مجهولة [1] . على أنهم لم يقدروا ان يستمروا على تلك الحال . فان المسلمين الذين نزحوا اليهم وتوطنوا بلادهم وحملوا ثقافتهم اليهم وهي اكثر اعتناء بالتاريخ من غيرها فلم يكن لهم بد من ان يصاغوا بصيغتها ، وينطبعوا بطابعها ، فأخذوا عن كتب منهُ حروفاً مواتية واجتنوا من اطرافه قطوفاً دانية حتى لم يكن عليهم من وعورته إباء ولا في تعاطي صعوبته عناء . فقد كتب غير واحد منهم كتباً قيمة فيه بالفارسية في اواخر عهد المغول . نحت بالبهاء فدُخر لها الثناء . بعضها في تاريخ الهند العام وبعضها في عهد خاص منهُ فمن القسم الاول « لباب التواريخ » للاستاذ المؤرخ (راي بندرابن) صنفهُ في سنة ١٧٢٣ ميلادية ، و« خلاصة التواريخ » للعالم (سوجن راي) صنفهُ في سنة ١٧٢٣ ميلادية و« منتخبات التواريخ » للفاضل (جك جيون داس) صنفه في سنة ١٧٥٣ ميلادية . ومن القسم الثاني « فتوحات عالمكيري » للفاضل (ايشور داس) صنفه في سنة ١٧٣٠ ميلادية ، و « تاريخ محمد شاهي » للاستاذ (خوشحال شند) صنفه في سنة ١٧٧٧ ، و « خلاصة التواريخ » للاستاذ (كلبان سنج) صنفه في سنة ١٨١٠ ميلادية . وجميع هذه الكتب جزيلة المباحث ، جمة الفوائد لا غناء عنها للباحث المحقق حيث لو لم يكن اصحابها ملاحظة بما فيها في تعصب ناصب ، وعناء معنّ لبقي كثير من المسائل التاريخية والاجتماعية والعلمية والادبية من ذلك الزمن في خبايا الغيب . استمرت جهود الهنود الوثنيين هكذا مبذولة في خدمة الادب الفارسي الى اوائل القرن التاسع عشر حتى استولى على البلاد المستعمرون الغربيون وفرضوا عليهم لغتهم فأعمى أثرها عنهم . وما نوهنا به هنا وفي مقالتينا السابقتين من خدماتهم للادب الفارسي ليس الا نذراً يسيراً من الجم الكثير

(١) أنظر الفلسفة الهندية مجلد أول للعالم الفيلسوف راد هاكرشنن ص ٥٧